المقتبس

الجزء الثامن من المجلد الثاني

شعبان سنة ١٣٢٥ الموافق سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٧

صدور المشارقة والمغاربة

تولستوى

ما خلت كل امة وكل عصر عن وجود مصلح او مجدد يقوم بين قومه بالوعظ والارشاد ويا خذ بيدها في مهيع السداد . تساوت في ذلك الامم المنحطة والناهضة قديمها وحديثها شرقيها وغربيها . وتولستوي هو رجل روسيا اليوم ومجدد حياتها الاجتماعية سعى الى الاصلاح فاثرت حكمته في عقول مئات ممن استعدت نفوسهم لقبول الخير فما عتموا ان بثوا افكاره في مئات واشربت القلوب محبته واكبرت الامم دعوته . ولا يزال على ما اصاب بلاده من رفع وخفض يتبع النظر بما يجري في القرب والبعد فهو اليوم في التاسعة والسبعين من عمره قتل الدهر علماً ونحر الايام فهماً فكانت جملة ما استفاده من علم وتجارب وماورثه من آبائه من مال وضياع وقفاً على افادة امته وما ينبضها من عثرتها .

من العادة ان يترجم كبار العلماء انفسهم في كل امة . وقد طلب من الحكيم الروسي احد اصدقائه منذ مدة ان يوافيه بترجمة حياته او يدله على طريقة يتسنى له بها ان يجمع موادها فكتب اليه شيئاً من احواله صبياً ويافعاً وذكر له بيته ومنشأه وهما اساس في تربية ملكات الرجال . قال ما نعربه عن احدى المجلات الافرنجية : فكرت في اجابة طلبتك فرأيتني في تيهاء من الحيرة يتنازعني عاملان عامل شر وعامل اشر منه . واعني بالاول اعجاب المرء بنفسه والاغضاء عما اتاه من المفاسد في حياته واريد بالثاني الانطلاق في الحرية

المفرطة السخيفة واريد مظالم الحياة باسرها . ان اخلصت في رصف ذاتي وغفلتي ومفاسدي وانطلقت في فكري وتجوزت في ابدائه على نحو ما انطلق الفيلسوف روسو في هذا المعنى يأتي من ذلك كتاب او مقال يخلب الالباب . ويقول الناس اليكم هذا الرجل الذي يعلي كثيرون مقامه هاهو انظروا اليه اي نذل كان . فهل تلام نحن ضعاف الفطرة من البشر اذا كنا انذالاً مثله واني لا انكر عند ما بدأت اذكر حياتي وقد تمثلت امامي غفلتي ولؤمي وذهبت بي الهواجس كل مذهب ورحت اقول في نفسي انا ذاك الرجل الذي يطريني كثيرون على مابي من شقاء وبلاهة . ولك ان تفسر قولي هذا بانني اكثر احتيالاً من غيري — اقول لك هذا القول بحرية ولا اقوله لأجمل به انشائي . من اجل هذا عمدت الى تسطير ترجمتي لاني رأيت من اللازم اللازب ان اظهر للملإ لؤم حياتي بأسره الى ان تنبهت من غفلتي وان اذكر محاسنها بعد انتباهي .

ذكرت بادي ء بدئ الحسنات في حياتي ولكنني لما فكرت في الحوادث المذكورة التي انابتني في غضونها رأيت ان مثل هذه الترجمة ان لم تكن كلها كذباً لم تكن مكتوبة باخلاص لاني مثلت فيها المناحي الحسنة واسدلت حجاب السكوت على المناحي السيئة وعند ما فكرت في كتابة الحقيقة على بابها دون ان اكتم منها شيئاً من السيئات التي تخللت حياتي ذعرت بما ذكرت مما يكون لهذه الترجمة من التأثير في الاذهان وفي خلال ذلك مرضت وعاودني الفكر خلال هذه العطلة التي سانفي اليها حكم الاضطرار وبقي يتردد في خاطري ذكرى ولكنها كانت مفزعة . وكنت اشعر بحدة لا توصف بما قاله بوشكين الشاعر في قصيدته « الذكرى » .

ذاقت نفسي عذاب الجحيم لما ذكرت لؤم حياتي الماضية ولم اعد أفارق تلك الذكرى بتة فانها سممت حياتي وكدرت سربي وشربي . جرت العادة ان يأسف الناس على نسيان ما جرى لهم بعد موتهم فيا ما اسعد ذلك من حال . وليت شعري اي اوصاب كانت تنالني في هذه الحياة لو ذكرت كل ما تعذب به وجداني وكل ما ارتكبته من اثم في حياتي السالفة ومن ذكر الخير كان عليه ان يذكر الشر . فياسعدي ان نسيت ذكرى ما شقيت به بعد موتي فلا يبقى من ذات نفسي غير الوجدان ذاك الوجدان الذي يمثل الخير والشر والصغير والكبير والسلبي والايجابي .

نعم اذا غربت الذكرى عن الذهن عدّ ذلك نعمة كبرى وما دامت تتردد في الخاطر لا يتأتى ان يعيش المرء مسروراً ولكن اذا غابت صورتها ندخل ميدان الحياة وصحيفتنا بيضاء نقية فيكتب عليها ما جدّ لنا من الخير والشر .

وبعد فلم تكن حياتي كلها منحطة المقام في خبثها بل كان منها عشرون سنة كذلك ومعلوم ايضاً ان حياتي في ذاك الدور لم تكن شراً دائماً كما تمثلت في عيني في غضون مرضي اذ قد تنبهت فيّ اثناء ذلك اميال نحو الخير لم تطل كثيراً بل اطفئت شعلتها للحال بادهمني من الشهوات التي لم يضبطها عنان.

على ان اشتغال الفكر على هذا النحو في خلال مرضي دلني دلالة صريحة على ان ترجمة الانسان نفسه على ما تكتب في العادة التراجم اذا أُغضيت فيها عن نذالتي وجريمتي في حياتي تكون ولا جرم كذباً وان خير الاساليب التي يتوخاها الكاتب في ترجمته ان ينطق بالحقيقة على جليتها . وامثال هذه التراجم هي التي تمثل الحقيقة على بابها للقاريء وان اورثت كاتبها الخجل .

فلما ذكرت ماضي حياتي على هذا النحو اي ذكرت ما اتيت من خير وما تم على يدي من شر رأيتني اقسم ادوار حياتي الطويلة باسرها الى اربعة ادوار : اولهاذاك الدور العجيب وخصوصاً اذا قيس بالدور الذي يليه — البار البهج الشعري واعني به دور الطفولية . ثم الدور الثاني وهو عشرون سنة كان فيه من الفساد الغليظ والخدمة والطمع بالمعالي وخصوصاً في المكاسب ما كان . ثم جاء الدور الثالث وهو ثماني عشرة سنة اي منذ تزوجت الى تشوري الروحي وهو الدور الذي يحق له ان يدعى في نظر العالم دور الاخلاق بمعنى اني عشت في هذه الثماني عشرة سنة كما تعيش الأسر بالحشمة والنظام غير مستسلم لمفسدة ينبذها الناس ولكن جميع مصالحي كانت مقصورة على عنايتي بأسرتي عناية مقرونة بحب الذات ممزوجة بالانانية وعلى زيادة ثروتي وعلى نجاحي الادبي وعلى مختلف حظوظ تنالها نفسي والدور الرابع يرد الى عشرين سنة التي انا فيها الآن واود ان اموت عليها وبها يتمثل لي ما في الحياة الماضية من عظيم الخطر وهو الدور الذي لا ابغي سواه ما خلا اعتيادي الشر الذي اندمج في روحي في الادوار الاخيرة .

وارى كتابة حياتي على هذا النحو انفع من هذر بدر من القلم في اثني عشر مجلداً من مصنفاتي ولتناولها الناس في عيدنا ونسبوا اليها من التأثير ما لا نستحقه .

كانت جدتي ابنة الامير نقولا ايفانوفيش غورتشاكوف الاعمى وكان غنياً تأثل وارتاش وجمع من حطام الدنيا شيئاً كثيراً . وكل ما اتصوره فيها انها كانت قليلة التعلم كثيرة الذكاء وكانت مثل كثيرات من ابناء وطنها على ذاك العهد تحسن الفرنسوية اكثر من الروسية وكان تعليمها عبارة عن معرفة هذه اللغة فقط فدللها والدها اولاً ثم زوجها وكانت عنواناً على الأسرة باجمعها لانها كانت بكرها وموضوع احترامهم اجمعين . وكان

جدي على ما ظهر لي ايضاً على شاكلة جدتي محدود المعرفة ولكنه كان من اللطف والانس على جانب وقد ادى به الكرم الى الاسراف الذي بلغ حد الحمق . وكان يشق ويخلص وكانت داره في مقاطعة يليف في برليانى ميدان الولائم وتمثيل الروايات والمراقص والمآدب ويضاف الى ما يقتضي ذلك من النفقات ولوع جدي بالمقامرة على ضعف معرفته فيها مع ما كان مُني به من اقراض كل من يقصده دراهم ما كان يرجعها اليه . هذا الى الاعمال الكثيرة التي باشرها فانتهت كلها بخراب بيته وافلاسه حتى اباع املاك زوجه واضطر الى التوظف فصار للحال والياً لقازان . ذكروا لي ان جدي لم يكن يقبل الرشى ما خلا رشوات من عملة الانبكحول وهي الرشوة التي ما كانت تستنكر اذ ذاك في كل ناحية من انحاء الامبراطورية الروسية ولكن قيل لي ان جدتي كانت تقبل الرشوة بدون اطلاع جدي وهكذا دامت الحال حتى زوجت ابنتها الثانية في قازان والبكر في بطرسبرج من احد الاشراف وبعد ان قضى زوجها نحبه سكنت جدتي لدى والدي في اياسنيا بوليانا وهناك ادركتها شيخة عجوزة وكانت تحب والدي واولاده وتتلهى بنا كما تتلهى بخالاتي . وظهر انها لم تكن تحب والدتي لانها كانت تجدها دون قدر والدي وتحسدها على حب والدي لها . واذكر من جدتي سياحتنا معها الى موسكو واهم ما يحاج فكري من ذلك ثلاثة مشاهد . المشهد الاول عند ما كانت جدتي تغسل يديها بانصابون تخرج منها فقاقيع كنت أدهش وأسر بمرآها واذكر يديها البيضاوين ووجهها الناصع الباسم . والمشهد الثاني ايام كنا نذهب الى غابة البندق ونجنيه في صحبة مؤدبنا وكانت جدتي تصحبنا في عجلتها والخادم يجر اليها الاغصان الميلاء لتقطف بندقها وتضعه في كيس امامها واذكر قوة معلمنا في جره الاغصان الكبيرة من ادواح البندق وتلك الظلال الوارفة والحر الشديد وسط الغابة والهواء البليل في الظل وتناوح اشجار الغاب ورائحتها وكيف تأكل الفتيات اللاتي كن معنا البندق على طراوته فلا يبقي منه ولا نذر وملأ به جيوبنا واردان ثيابنا وعجلتنا . وكنت يخيل لي ان تلك الفقاقيع لا يتيسر احداثها الا على يد جدتي وذاك الريح البليل في غابة البندق لا يهب الا اذا رافقتنا اليها جدتي . والمنظر الثالث وهو اعظمها واعني به (ليون ستيبانيتش) الاعمى القصاص الذي كان في بيتنا من بقايا مجد جدي الغابر يسكن دارنا ولا عمل له الا سرد الاقاصيص في الليل وذلك لان عماه كان يساعده على حفظ الحكايات بالفاظها بمجرد تلاوتها عليه مرتين وكان يتلو على مسامع الحضور حكاية قمر الزمان المعروفة في قصة الف ليلة وليلة وكنت اقترب من القصاص استمع اليه ولكنني ما كنت افهم شيئاً مما يقول ثم انام ولا اعود احس بما يجري في دارنا الى الغد .

وما اعرفه عن جدي والد امي انه بعد ان صار قائداً عاماً على عهد الامبراطورة كاترينا عزل دفعة واحدة عن منصبه لانه لم يرض ان يتزوج ابنة اخت المشير بوتمكن نديم كاترينا الثانية فناه عن وظيفته لانه رفض الزواج منها لاسباب عرفها فيما رداً غير جميل . ولما نحي عن منصبه تزوج بفتاة من اهل الصون رزق منها ابنة . وكان جدي هذا مشهوراً بجبروته وانه من الرؤساء البغاة . بيد اني لم ينقل لي شيء عن قسوته ولا عن عقوباته المعتادة في عهده واظن ان ذلك كان يقع منه على التحقيق لكنه لم يجسر احد حاشيته وفلاحيه ان يطلعني على ذلك مع الحاحي في السؤال وذلك تشريفاً لقدره واعظاماً لحكمته فلم اكن اسمع عنه غير عبارات الثناء على بعد غوره وسداد نظره واعتداده بفلاحيه ونداهم على كثرتهم . وقد اسس بناية عظيمة لخدمته وكان لا يقصر عنايته على اطعامهم فقط بل يعنى بكسوتهم احسن كسوة وبادخال السرور على قلوبهم وكان يقيم لهم الالعاب المختلفة في ايام الاعياد والمواسم . وكان اتباعه وخاصته آمنين بما لهُ من النفوذ من ظلم الظالمين من الحاكمين فمن ثم كان جدي في جميع اعماله يميل الى المتانة والراحة والاحسان والظرف يعشق الطرب والموسيقى ويجلس الى سماعها من والدتي في اماكن اعدها لذلك في حديقة الدار

لا اتذكر والدتي قط فقد كنت ابن سنة ونصف لما قضت نحبها فانا لا اتمثلها اصلاً ولا اعرف شيئاً يدلني على جسم انسان بل اعرفها بالروح وكل ما بلغني من امرها كان حسناً جميلاً . سألت اهلي عنها فحدثوني باطيب الحديث لا لكونها امي بل لانه كان فيها صفات عالية من الخير والاحسان . وكنت اجدني في طفوليتي بين ظهراني قوم حفهم الصلاح والفضل ارى ذلك خاصة فيهم من والدي الى سائق عجلتي كما يرى اصفياء القلوب غالباً كل حسن في الناس ولا تتمثل لهم الا الصفات الطاهرة . وعندي ان ما تمثل لي فيمن نشأت بينهم من الصفات كان الى الصحة اقرب . ولذلك أُحببت به في صغري .

لم تكن والدتي من الجمال بحيث تسبي الالباب بل كانت على جانب من الذكاء بالنسبة لعصرها فكانت تحسن الروسية قراءة وكتابة خلافاً لمعاصراتها اذ ذاك وتعرف الفرنسوية والالمانية والانكليزية والايطالية وما ميل الى الفنون وتجيد الضرب على البيانو . ولقد ذكر لي عشيراتها بانها كانت تحسن القاء الحكايات فتستدعي اعجاب الحضور وترتجل الكلام ارتجالاً وكانت تمتاز بكظم غيظها على ما يروى لي الخدام . فاذا عرض لها ما يهيجها يحمر وجهها وربما بكت على ما نقلت لي وصيفتها ولكنها ما قط فاهت بكلمة قبيحة اذ انها لم تكن تعرف من الفاظ الهجر ولا كلمة .

لدي رسائل كتبتها والدتي الى والدي والى خالاتي وجريدة تصف فيها سلوك اخي

البكر (نيكولانكا) الذي كان عمره ست سنين عند ما توفيت وكان اشبه منا كلنا بصورتها . وكانت امي وابنها على ما استنتجت ذلك من كتاباتها ولحظت ذلك من اخي وعلمه علم اليقين عدم الاحتفال بآراء الغير والاتضاع بحيث كانا يحاولان ان يكتما فوائد التعليم والذكاء والفضيلة التي امتازا بها دون سائر القوم ويخجلان مما تحليا به من الصفات حتى قال احدهم في اخي انه كان بريئاً من العيوب اللازمة ليعد صاحبها من كبار الكتاب ولقد شاهدت ذات يوم احد الاغنياء الساقطين وهو حارس والي الولاية وكان يصطاد معه اخذ يهزأ به امامي واذكر كيف ان اخي لما حدجني ببصره مسروراً رأى في هذه الاهانة مسرة عظمى . ومثل هذا الخلق كان في والدتي وكانت في اخلاقها ارقى من والدي وأسرته اللهم الا (تاتيانا الكسندرا اركولسكي) التي قضيت معها نصف حياتي وكانت امرأة مشهورة باخلاقها المهذبة . ولم يكن اخي وامي ممن يقولان الا خيراً عن الناس وكنت ارى شقيقي اذا كان له ما يقال في سيرة احد ان يبتسم ويبدي حسن الخلق وكذلك كانت امي كما فهمت من رسائلها .

وكنت قرأت في حياة احد القديسين قطعة من كلامه تأثرت بها نفسي . ذلك ان راهباً كان معروفاً عند الناس بكثرة خطاياه فرآه رئيسه ذات ليلة في عداد الاخيار يسرح ويمرح في اعلى عليين فسأله عن امره فقيل له انه لم يغتب احداً في حياته . قلت فان كان في الآخرة جزاء يشبه هذا فوالدتي واخي لا شك احرزا هذا الجزاء .

وامتازت والدتي عن محيطها بحرية وجدانها وسذاجة لهجتها في رسائلها فكان القوم اذ ذاك يغالون في اظهار عاطفتهم . عادة لم تكن مألوفة غير مستنكرة فيقول القريب لقريب يكتب اليه انت منقطع القرين وانت في عبدك وانت بهجة حياتي وكان التبجيلات في الاخوانيات قليلة دل ذلك على قلة اخلاص الكاتب للمكتوب اليه . وقد شهدت هذه العادة في رسائل والدتي ولكنها كانت معتدلة في اظهارها وعباراتها تدل على الاعتدال والاخلاص . قيل لي ان والدتي كانت تحبني حباً جماً وتدعوني بنيامين الصغير وقد كانت غنية وكان والدي نشيطاً بهجاً واسع الصيت والصلات واظن ان والدتي كانت تحب والدي لانه والد بنيها وزوجها ولم تكن تحبه حب العاشق المستهام وكان حبها لخطيبها الاول الذي اختطفته المنية حب الفتيات الذي لا يشعرن به الا مرة واحدة وان ما اعلمه علم يقين هو ان امي كانت تحب ثلاثة حباً حقيقياً وهم خطيبها الاول والآنسة اينيش الفرنسوية احدى صويحبات وابنها البكر وكانت تنشئ له جريدة يومية تحرر له فيها ما يقترفه من الذنوب وتعيده على مسامعه ثانية وفي هذه الجريدة ذكر لرغبتها الشديدة في تربيته ما امكن وهناك دليل

على انها كانت ضعيفة في هذا المعنى لا تدري ما تعمله . مثال ذلك انها كانت توثبه عند ما يشتد فيه الشعور والاحساس فيبكي مثلاً عند ما يشاهد الحيوانات تتألم امامه لان على المرء برأيها ان يكون قاسي القلب وكانت تعاتبه على الصغائر كأن يقول لجدته اشكرك عوضاً عن ان يقول لها اسعد الله صباحك ومساءك . واكدت لي خالتي ان امي كانت تحبني واني كنت احد من يحبه قلبها وخلفت والدتي خمسة اولاد كانت آخرهم ابنة ماتت في نفاسها . وظلت مع والدي تسع سنين كانت ايام سعد ورخاء فكانت على علو منزلتها ولطافة اخلاقها وآدابها تحب من حولها ويحبونها وكانت اميل الى العزلة تصرف وقتها باولادها ومطالعة الروايات امام جدتي في الليل بصوت عال والاشتغال بمطالعات نافعة مثل كتاب « اميل » للفيلسوف روسو والمذاكرة فيما قرأته ويتقضين شيئاً من الوقت في الضرب على آلة طرب ثم بتدارسن اللغة الايطالية وتتنزه وترى اعمال البيت .

لبعض الأسرات اوقات من الصفاء لا يزعجها موت احدهم ولا مرض بعض افرادهم فيعيشون سعداء وهذا الدرر صادفته والدتي الى حين وفاتها فكان والدي يدخل البهجة على قلوب اهل البيت بما يتوفر على ذكره من الاضاحيك المليهة والاحاديث المسلية .

هذا ما عرفته من مطالعة المفكرات والرسائل عن والدتي وحياتي في بيتنا على ذاك العهد في الطفولية وهاءنذا وصلت الى وقت ألم فيه بما اذكره بنفسي فارويه مقروناً باشخاصه واماكنه . اما والدي فقد كان عمره سنة ١٨١٢ سبع عشرة سنة وانخرط في سلك الجيش على كثرة توسل اهله به ليرجع عما قصد له وخوفهم عليه وكان اذ ذاك احد انسبائنا قائد الجيش العامل فعينه له حاجباً واشترك في حرب سنة ١٨١٣ — ١٨١٤ واسره الفرنسيس ولم يخلص من الاسر الا سنة ١٨١٥ عند ما دخل جيشنا باريز

بلغ العشرين من عمره ولم يكن على شيء من العفاف حتى ان اهله زوجوه بخادمة وكان عمره ست عشرة سنة تفادياً من ان تسوء صحته على نحو ما كان القوم يذهبون اليه اذ ذاك فولد له منها ابن دعوه ميشانكا عاش في حياة والدي عيشة حسنة ثم ساءت حاله فكان كثيراً ما يلجأ الينا لنعينه واني لاذكر شعور التعجب الغريب الذي شعرت به عند ما امسى اخي هذا شحاذاً يستوكف الاكف وهو شبيه في خلقته بابي بل اشدنا به شبهاً ثم يجيء ويطلب منا ان نحسن اليه بشيء من المال ويسر بما ندفعه اليه من عشرة روبلات او خمسة عشر . ثم تخلى والدي عن الخدمة ونال راتب العزل ولحق بجدي في قازان وكان حاكمها وبعد قليل ذهب جدي الى سبيله واصبح والدي رب أسرته مع جدتي المعتادة على البذخ والديون مثقلة كاهل بيتنا وعندئذ تزوج ابي بوالدتي على ما نحو شرحته آنفاً من امرها .

كان والدي دمويًا ربعة القوام مقبول الوجه كثيب النظر يعنى بامور زراعته ولم يكن مسرورًا بالقسوة بل كان الى الضعف اقرب بحيث اني لم اسمع انه كان يضرب فلاحيه على اجسادهم على نحو العادة المتبعة في هذه الديار على انه لم يبلغني انه كان في بيتنا اثر لهذه العقوبات الا بعد موته. وحدث ما شئت ان تحدث عن مبلغ استغرابي يوم كنت آتيًا من نزهة لي مع مؤدبي وسأل احدنا وكيلنا وكان معه سائس الخيل عن المكان الذي يقصده فقال له انه ذاهب الى الانبار ليضرب السائس على بدنه ورحت من ساعتي اسأل خالتي عن سر ذلك وكانت في تنكره العقوبة بالضرب فلامتني على اني لم اوقف ذاك الوكيل عن عمله ولكن بعد ان سبق السيف العذل.

كان ابي مصروفًا بجملته الى الزراعة وفض القضايا التي خلفها له والده وكان يذهب الى الصيد ويحب المطالعة كثيرًا وقد اقتنى مكتبة فيها كتب آداب الفرنسيس وبعض كتب العلم وآلى على نفسه ان لا يبتاع كتابًا جديدًا حتى يأتي على ما لديه من الاسفار ويطالعها برمتها ولم يكن به ميل الى العلوم. بيد انه كان في علمه يعادل المتعلمين من اهل عصره ولا يصح ان يسمى من الاحرار في دهره بل كان يكره تغيير شيء من حاله فلا يخضع للكبراء ولا يزور الموظفين بل ولا يزورنا واحد منهم لما كان بينه وبين اهل الحكم في ذاك الوقت من التباين الضمني في المباديء والغايات

واني لاذكر والدي وهو جالس على ديوانه يدخن بغليونه واذكر صيوده واذكر ايامه واجتماعنا به وتحفيظي شيئًا من شعر بوشكين وكيف أُعجب بتلاوتي له. نعم اذكر رحلاته وغدواته وروحاته واذكر ما كان يفيضه عليَّ من حسناته واحسانه واذكر حبه وحبي ذلك الذي شعرت به بعد موته اكثر من شعوري به من قبل. وهنا استطرد الى ذكر شيء مما علق بذهني من امور طفوليتي اذكرها وانا لا اثلبث بعضها حقيقية كانت او خياليه. ولقد كنت في القماط واريد ان افلت يدي ولا استطيع ذلك واصرخ وابكي وصوتي كان منكرًا حتى في عيني ولكن ما كنت املك نفسي من البكاء وارى احدهم في قربي يحنو عليَّ ولا اذكر شخصه وارى ذلك كأنه ظلم او يكاد يكون ظلماً ولكني اذكر انهما كانا اثنتين وكان صوتي يؤثر فيهما فكانتا تسمعان صوتي ولكنهما لا تنقذاني مما اشكو منه ثم اصرخ بشدة ايضًا فيريان انه من اللازم ان اكون مقيدًا في قماطي وانا ارى انه ليس كذلك واريد ان اثبت لهما ذلك واصرخ صوتًا حادًا كانت نفسي تنكره ولكن لم اكن املك منه واشعر بالظلم والقسوة لا من الناس فقط بل من الاقدار اذ كنت اشهد الناس يرثون لحالي وكنت اشفق على نفسي ولا اعرف ذلك ما هو ولن اعرفه. هل كان قماطي عند ما كنت بعد رضيعًا واحاول ان اخرج ذراعي من القماط او القماط عند ما كانت سني تزيد على سنة.

وعلى الجملة فقد كان ذلك من المؤكد اول تأثر بل اشده شهدته في حياتي ولا اذكر صوتي وآلامي فقط بل اذكر مزاجي واختلاف تأثراتي . اطلب الحرية وهي لا يتضرر بها انسان وانا على حاجتي الى القوة ضعيف وعن الاقوياء وكذلك اذكر عند ما كانوا يغطسونني في القادوس وقد جعلت فيه رائحة زكية جديدة يتمسحون بها جسمي واستلذ جلوسي في القادوس وهو صقيل لطيف والماء فاتر خفيف ويد مربيتي تروح وتجيء تدلك بدني . وهاتان الذكريان هما اللتان اذكرهما منذ ولدت الى الثالثة من عمري بل اني الى الخامسة لا اكاد اذكر السماء ولا الشمس ولا الورق ولا العشب . بحيث ساغ لي ان اقول اني عشت عيش البهيم ايام كنت اتعلم وانظر وانمت واحاول ان اتكلم واناام وارضع واضحك وأسر والدتي في ذاك العهد حصلت ما اعيش به الآن حصلت به في مدة وجيزة باقصى ما يمكن من الكثرة بحيث اني لم استطع ان ازد واحداً في المئة على هذه المعرفة . ليس بيني وبين ابن الخامسة سوى قدم كما انه ليس بين الوليد الى ابن الخامسة سوى مسافة لا تصدق وليس بين الجنين والوليد سوى هوة وليس بين العدم والجنين سوى شيء صعب تعليله ومعرفته . وهنا يقال ان الوقت والسبب هما صور من الفكر وان معنى الحياة خارج عن تلك الصور بيد ان حياتنا كلها ليست سوى الخضوع المتواتر لهذه الصور او الخلاص منها .

اما تذكاراتي القصية فانها ترجع الى السنة الرابعة او الخامسة من عمري وكلها قليلة لا تتعدى حد البيت والعيش المنزلي . وما انس لا انس في طفوليتي وانا على سريري فرح مبتهج ووصيفتي او اللائي عهد اليهن تربيتي تقص عليّ قصة ايرميفنا (كما تخوف عامة النساء في الشرق الادنى الاولاد بالعفريت والبعبع) فكانت تنقبض نفسي لسماعها وتبدل البهجة بالفزع والفرح بالترح واذكر شقيقتي بجانبي واذكر مؤدبنا الالماني تيودور ايفانوفيتش وان لم اكن في تلك السن تحت وصايته واذكر دارنا وانها كانت شاهقة واذكر ما القاه فيها من النساء وربما كن من الغسالات وكيف كنت اقفز ويقفز معنا مؤدبنا ولكن قفزة خفيفة .

هذا ما يتردد في خاطري من ذكرى الحوادث التي طرأت عليّ قبل الخامسة اما بعدها فان ما اذكره ولا انساه هو اخذهم بيدي الى المؤدب ايفانوفيتش واستعاضتي عن اللعب والقفز وغيرهما بالدراسة وتبديل ما كنت الفته بعادات اخرى ومنازع جديدة . وهنا ذكر الحكيم خالته ثاتيانا الكسندروفنا وما اثرته باعماله في حياته وكانت من النساء المتهذبات فعلمته الحب والميل الى الوحدة والتأثر من المظالم